25 - قوله D : { هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام } الآية روى الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا : خرج رسول ا A من المدينة عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه يريدون زيارة البيت لا يريد قتالا وساق معه سبعين بدنة والناس سبعمائة رجل وكانت كل بدنة عن عشرة نفر فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عينا له من خزاعة يخبره عن قريش وسار النبي A حتى كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان أتاه عينه الخزاعي وقال : إن قريشا قد جمعوا لك جموعا وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال النبي A : أشيروا علي أيها الناس أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم ؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن نجوا تكن عنقا قطعها ا ؟ أو ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ .

فقال أبو بكر : يارسول ا إنما خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حربا فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه .

فقال : امضوا على اسم ا فنفروا قال النبي A إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوا ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش وسار النبي A حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس : حل حل فألحت فقالوا : خلأت القصواء فقال النبي A : ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال : والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمات ا وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياه ثم زجرها فوثبت .

فقال : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضا فلم يلبث الناس أن نزحوه وشكا الناس إلى النبي A العطش فنزع سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه يقال له ناجية بن عمير وهو سائق بدن النبي A فنزل في البئر فغرزه في جوفه فوا ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه فبينما هم كذلك إذ جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه وكانت خزاعة عيبة نصح رسول ا A من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

فقال النبي A : إنا لم نجيء لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على

أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن ا أمره .

فقال بديل : سأبلغهم ما تقول فانطلق حتى أتى قريشا قال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا قال : فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء وقال ذو الرأي منهم : هات ما سمعته يقول .

قال : سمعته يقول كذا وكذا بما قال النبي A فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال : أي قوم ألستم بالوالد ؟ قالوا : بلى قال : أولست بالولد ؟ قالوا : بلى قال : فهل تتهموني ؟ قالوا : لا قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحواعلي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا : ة بلى قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته قالوا : ائته فأتاه فجعل يكلم النبي A فقال النبي A نحوا من قوله لبديل فقال عروة عند ذلك : يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فإني وا لأرى وجوها وأشوابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك .

فقال له أبو بكر الصديق : امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه ؟ .

فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر فقال : أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك .

قال : وجعل يكلم النبي A فكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي السيف بنعل يده ضرب A النبي لحية إلى بيده عروة أهوى فكلما المغفر وعليه السيف ومعه A وقال أخر يدك عن لحية رسول ا A فرقع عروة رأسه فقال : من هذا ؟ قالوا : هذا المغيرة بن شعبة فقال : أي غدر ألست أسعى في غدرتك .

وكان المغيرة صحب قوما في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي A : أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي A قال : فوا ما تنخم رسول ا A نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيما له فرجع عروةإلى أصحابه فقال : أي قوم وا لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي وا إن رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا وا إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظرة تعظيما له وإنه عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته فقالوا : ائته فلما أشرف على النبي A وأصحابه قال رسول ا A : هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له فبعثت له واستقبله الناس

يلبون فلما رأى ذلك قال : سبحان ا ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ؟ .

فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول ا A قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا بالهدي في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول ا A إعظاما لما رأى فقال : يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل صد الهدي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله فقالوا له : اجلس إنما أنت رجل أعرابي لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك فقال : يا معشر قريش وا ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت ا من جاءه معظما له والذي نفس حليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا : مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا بما نرضى به .

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال : دعوني آته فقالوا : ائته فلما أشرف عليهم قال النبي A : هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي A فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو وقال عكرمة : فلما رآه النبي A قال : قد سهل لكم من أمركم .

قال الزهري في حديثه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات نكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا رسول ا A علي بن أبي طالب Bه فقال له : اكتب بسم ا الرحمن الرحيم .

فقال سهيل : أما الرحمن فوا ما أدري ماهو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب .

فقال المسلمون : وا لا نكتبها إلا بسم ا الرحمن الرحيم .

فقال النبي A لعلي : اكتب باسمك اللهم ثم قال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول ا A .

فقال سهيل : وا لو كنا نعلم أنك رسول ا ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب : محمد بن عبد ا .

فقال رسول ا A : وا إني لرسول ا وإن كذبتموني اكتب يا علي محمد بن عبد ا .

قال الزهري : وذلك لقوله : لا يسألون خطة يعظمون فيها حرمات ا إلا أعطيتهم إياها فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد ا سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض فقال له النبي A : وعلى أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به فقال سهيل : وا لا تتحدث العرب إنا أخذناها ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل فكتب فقال سهيل وعلى أن لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا فقال المسلمون : سبحان ا كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلما ؟ .

وروى أبو إسحاق عن البراء قصة الصلح وفيه قالوا : لو نعلم أنك رسول ا ما منعناك شيئا

ولكن أنت محمد بن عبد ا قال : أنا رسول ا وأنا محمد بن عبد ا ثم قال لعلي Bه : امح رسول ا قال : لا وا لا أمحوك أبدا قال : فأرنيه فأراه إياه فمحاه النبي A بيده وفي روايته : أخذ رسول ا A الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب هذا ما قاضى محمد بن عبد ا .

قال البراء : صالح على ثلاثة أشياء : على أن من أتاه من المشركين رده إليهم ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه .

وروى ثابت عن أنس : أن قريشا صالحوا النبي A فاشترطوا : أن من جاءنا منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددتموه علينا فقالوا : يارسول ا أنكتي هذا ؟ قال : نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده ا ومن جاءنا منهم سيجعل ا فرجا ومخرجا .

رجعنا إلى حديث الزهري قال : فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جبدل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت وخرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي فقال النبي : إنا لم نقض الكتاب بعد قال : فوا إذا لا أصالحك علي شيء أبدا فقال النبي A : فأجره لي فقال : فما أنا بمجيره لك قال : بلى فافعل قال : ما أنا بفاعل ثم جعل سهيل يجره ليرده إلى قريش قال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون ما لقيت ؟ وكان قد عذب عذابا شديدا في ا .

وفي الحديث : أن رسول ا A قال : يا أبا جندل احتسب فإن ا جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقدا وصلحا وإنا لا نغدر فوثب عمر يمشي إلى جنب أبي جندل ويقول : اصبر فإنما هم المشركون ودم أحدهم كدم كلب ويدني قائم السيف منه قال عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه فضن الرجل بأبيه .

وقد كان أصحاب رسول ا A خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول ا A فلما رأوا ذلك دخل الناس أمر عظيم حتى كادوا يهلكون وزادهم أمر أبي جندل شرا إلى ما بهم .

قال عمر : [وا] ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ .

قال الزهري في حديثه عن عروة عن [مروان] والمسور ورواه أبو وائل عن سهل بن حنيف قال عمر بن الخطاب Bه : فأتيت النبي A فقلت : ألست نبي ا حقا ؟ قال : بلى قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى قلت : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذن ؟ قال : إني رسول ا ولست أعصيه وهو ناصري قلت : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قلت : لا قال : فإنك آتيه ومطوف به قال : فأتيت أبا بكر فقلت : ياأبا بكر أليس هذا نبي ا حقا ؟ قال : بلى قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى قلت :

أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى قلت : فلم نعطي الدنية في ديننا إذن ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول ا ليس يعصي ربه وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوا إنه على الحق قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى افأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا قال : فإني آتيه ومطوف به .

قال الزهري : قال عمر : فعملت لذلك أعمالا .

قال : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول ا A لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا قال : فوا ما قام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة : يا نبي ا أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم أن يقتل بعضا غما .

قال ابن عمر وابن عباس : حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون فقال رسول ا A : يرحم ا المحلقين قالوا : والمقصرين ؟ قال : يرحم ا المحلقين قالوا : والمقصرين ؟ قال : والمقصرين قالوا : يا رسول ا فلم ظاهرت الترحم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : لأنهم لم يشكوا قال ابن عمر : وذلك لأنه تربص قوم وقالوا لعلنا نطوف بالبيت .

قال ابن عباس : وأهدى رسول ا A عام الحديبية في هداياه جملا لأبي جهل في رأسه برة من فضة ليغيظ المشركين بذلك .

وقال الزهري في حديثه : ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل ا تعالى { يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات } حتى بلغ { بعصم الكوافر } (الممتحنة - 10) فطلق عمر Bه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية قال : فنهاهم أن يردوا النساء وأمر برد الصداق .

قال : ثم رجع النبي A إلى المدينة فجاءه أبو بصير عتبة بن أسيد رجل من قريش وهو مسلم وكان ممن حبس بمكة فكتب فيه أزهر بن عبد عوف والأخنس بن شريق الثقفي إلى رسول ا A وبعثا في طلبه رجلا من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم فقدما على رسول ا A وقالا : العهد الذي جعلت لنا فقال رسول ا A : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح في ديننا الغدر وإن ا جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ثم دفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين : وا إني لأرى سيفك هذا جيدا فاستله الآخر فقال : أجل وا إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت به فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه فأخذوه وعلاه به فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول ا A حين رآه لقد رأى هذا ذعرا فلما انتهى إلى

النبي A قال : ويلك مالك ؟ قال : قتل واﷲ صاحبي وإني لمقتول فواﷲ ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحا السيف حتى وقف على رسول اﷲ A فقال : يا نبي اﷲ أوفى اﷲ ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني اﷲ منهم فقال النبي A : ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر وبلغ المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكة قول رسول اﷲ A لأبي بصير : ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد فخرج عصابة منهم إليه وانفلت أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير حتى اجتمع إليه قريب من سبعين رجلا فواﷲ ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إى اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي A تناشده اﷲ والرحم لما أرسل إليهم فمن آتاه فهو آمن فأرسل إليهم النبي A فقدموا عليه المدينة فأنزل اﷲ تعالى : { وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان اﷲ بما تعملون بصيرا } حتى بلغ { حمية الجاهلية } وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي اﷲ A ولم يقروا ببسم اﷲ الرحمن الرحيم وحالوا بينه وبين البيت .

قال اﷲ D : { هم الذين كفروا } يعني كفار مكة { وصدوكم عن المسجد الحرام } أن تطوفوا به { والهدي } أي : وصدوا الهدي وهي البدن التي ساقها رسول اﷲ A وكانت سبعين بدنة { معكوفا } محبوسا يقال : عكفته عكفا إذا حبسته وعكوفا للازم كما يقال : رجع رجعا ورجوعا { أن يبلغ محله } منحره وحيث يحل نحره يعني الحرم { ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات } يعني المستضعفين بمكة { لم تعلموهم } لم تعرفوهم { أن تطئوهم } بالقتل وتوقعوا بهم { فتصيبكم منهم معرة بغير علم } قال ابن زيد : معرة إثم وقال ابن إسحاق : غرم الدية .

وقيل : الكفارة لأن اﷲ D أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يعلم إيمانه الكفارة دون الدية فقال : { فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة } (النساء - 92) .

وقيل : هو أن المسركين يعيبونكم ويقولون أهل دينهم والمعرو : المشقة يقول : لولا أن تطؤوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لا تعلموهم فليزمكم بهم كفارة أو يلحقكم سبة وجواب لولا محذوف تقديره : لأذن لكم في دخولها ولكنه حال بينكم وبين ذلك .

{ ليدخل اﷲ في رحمته من يشاء } فاللام في (ليدخل) متعلق بمحذوف دل عليه معنى الكلام يعني : حال بينكم وبين ذلك ليدخل اﷲ في رحمته في دين الإسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح قبل أن تدخلوها { لو تزيلوا } لو تميزوا يعني المؤمنين من الكفار { لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما } بالسبي والقتل بأيديكم .

وقال بعض أهل العلم : (لعذبنا) جواب لكلامين أحدهما : (لولا رجال) والثاني : (لو تزيلوا) ثم قال : { ليدخل اﷲ في رحمته من يشاء } يعني المؤمنين والمؤمنات .

وقوله : { في رحمته } أي جنته وقال قتادة في هذه الآية : إن ا يدفع بالمؤمنين عن الكفار كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة